بسم الله الرحمن الرحيم

٩٧ – سورة القدر

قال السيوطيّ : فيها قولان ، والأكثر أنها مكية ، وآيها خمس .

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ)

[٢] (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ)

[٣] (لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

[٤] (تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ)

[٥] (سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ)

« إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ » أى أنزلنا القرآن على قلب خاتم النبيين ، بمعنى ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر . وقد وصفت بالمباركة فى قوله تعالى[1] : (إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ) وكانت فى رمضان ، لقوله تعالى[2] (شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ) .

قال الإمام : سميت ليلة القدر، إما بمعنى ليلة التقدير ، لأن الله تعالى ابتدأ فيها تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيه فى دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه . أو بمعنى العظمة والشرف ، من قولهم (فلان له قدر) أى له شرف وعظمة. لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرّفه وعظّمه بالرسالة، وقد جاء بما فيه الإشارة، بل التصريح، بأنها ليلة جليلة، بجلالة ماوقع فيها من إنزال القرآن . فقال «وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ» أى وما الذى يعلمك مبلغ شأنها ونباهة أمرها « لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ » فكرر ذكرها ثلاث مرات . ثم أتى بالاستفهام الدالّ

(١) [٤٤ / الدخان / ٣] . (٢) [٢ / البقرة / ١٨٥] .

على أن شرفها ليس مما تسهل إحاطة العلم به ، ثم قال (إنها خير من ألف شهر) لأنه قدمضى على الأمم آلاف من الشهور وهم يختبطون فى ظلمات الضلال . فليلة يسطع فيها نور الهدى خير من ألف شهر من شهورهم الأولى . ولك أن تقف فى التفضيل عند النص ، وتفوض الأمر ، فى تحديد مافضلت عليه الليلة بألف شهر ، إلى الله تعالى. فهو الذى يعلم سبب ذلك ولم يبينه لنا ، ولك أن تجرى الكلام على عادتهم فى التخاطب . وذلك فى الكتاب كثير . ومنه الاستفهام الواقع فى هذه السورة (وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ) فإنه جار على عادتهم فى الخطاب . وإلا فالعليم الخبير لا يقع منه أن يستفهم عن شىء . فيكون التحديد بالألف لامفهوم له ، بل الغرض منه التكثير . وإن أقل عدد تفضله هو ألف شهر . ثم إن درجات فضلها على هذا العدد غير محصورة. فإذا قلت (إخفاء الصدقة خير من إظهارها) لم تعين درجة الأفضلية . وهى درجات فوق درجات وقد جاء فى الكتاب فى واقعة واحدة ، هى واقعة بدر ، أن الله أمد المؤمنين بألف من الملائكة، أو بثلاثة آلاف، أو بخمسة آلاف، كما تراه فى الأنفال وآل عمران . فالعدد هناك لامفهوم له ، كما هو ظاهر . فهى ليلة خير من الدهر إن شاء الله . ثم استأنف لبيان بعض مزاياها فقال « تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا » يخبر جل شأنه أن أول عهد للنبىّ ﷺ بشهود الملائكة ، كان فى تلك الليلة . تنزلت من عالمها الروحانىّ الذى لايحده حد ولا يحيط به مقدار ، حتى تمثلت لبصره ﷺ ، والروح هو الذى يتمثل له مبلغاً للوحى، وهو الذى سُمِّىَ فى القرآن بجبريل. وإنما تظهر الملائكة والروح « بِإِذْنِ رَبِّهِم » أى إنما تتجلى الملائكة على النفس الكاملة، بعد أن هيأها الله لقبول تجليها. وليست تتجلى الملائكة لجميع النفوس كما هو معلوم. فذلك فضل الله يختص به من يشاء. واختصاصه هو إذنه ومشيئته . ثم إن هذا الإذن مبدؤه الأوامر والأحكام . لأن الله يجلى الملائكة على النفوس، لإيحاء مايريده منها. ولهذا قال « مِّن كُلِّ أَمْرٍ » أى أن الله يظهر الملائكة والروح لرسله عند كل أمر يريد إبلاغه إلى عباده . فيكون الإذن مبتدئاً من الأمر على هذا المعنى .

والأمر هٰهنا هو الأمر فى قوله[1] (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) فالكلام فى الرسالة والأوامر والأحكام ، لا فى شىء آخر سواها . ولهذا قال بعضهم : إن (من) هٰهنا بمعنى الباء ، أى بكل أمر . ولاحاجة إليه لما قلنا . وإنما عبر بالمضارع فى قوله (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ) وقوله (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) مع أن المعنى ماض ، لأن الحديث عن مبدأ نزول القرآن ـ لوجهين :

الأول : لاستحضار الماضى لعظمته على نحو ما فى قوله[2] (وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ) فإن المضارع بعد الماضى يزيد الأمر تصويراً . والثانى : لأن مبدأ النزول كان فيها . ولكن بقية الكتاب وما فيه من تفصيل الأوامر والأحكام كان فيما بعد . فكأنه يشير إلى أن ما ابتدأ فيها يستمر فى مستقبل الزمان حتى يكمل الدين . وقوله تعالى « سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ » أى أنها كانت ليلة سالمة من كل شر وأذى . والإخبار عنها بالسلام نفسه ـ وهو الأمن والسلامة ـ للمبالغة فى أنه لم يَشُبْها كدر ، بل فرج الله فيها عن نبيه كل كربة ، وفتح له فيها سبل الهداية ، فأناله بذلك ما كان يتطلع إليها ، الأيامَ والشهور الطوال.

تنبيهات :

الأول : قدمنا أن ليلة القدر التى ابتدئ فيها نزول القرآن كانت فى رمضان لآية (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) ولا إجماع فى تعيين تلك الليلة . بل فى صحيح البخارى[3] أنها رفعت . أى رفع العلم بتعيينها . وفى رواية فيه : نسيتها أو أنسيتها . من قوله صلوات عليه . ولذا رغب فى قيام رمضان كله رجاء موافقتها فى ليلة منه . نعم الأقوى رواية أنها فى العشر الأخير من رمضان لما كان من اهتمامه ﷺ بالاعتكاف فيه وإحياء ليله وإيقاظ أهله. وقد ذهب ابن مسعود والشعبى والحسن وقتادة إلى أنها ليلة أربع وعشرين .

(١) [٤٤ / الدخان / ٤و٥] .

(٢) [٢ / البقرة / ٢١٤] . (٣) أخرجه فى : ٣٢ ـ كتاب فضل ليلة القدر، ٢ ـ باب التماس ليلة القدر فى السبع الأواخر ، حديث رقم ٤١٩ ، عن أبى سعيد الخدرى .

قال ابن حجر : وحجتهم حديث واثلة أن القرآن نزل لأربع وعشرين من رمضان . وقد اضطربت أقوال السلف فيها . صحابة ومن بعدهم . حتى أنافت على أربعين قولًا .

قال الإمام : ثم الأخبار الصحيحة متضافرة على أنه فى شهر رمضان . ولا نعيّنها من بين لياليه . فقد اختلفت فيها الروايات اختلافا عظيما . وكتاب الله لم يعينها . وماورد فى الأحاديث من ذكرها ، إنما قصد به حث المؤمنين على إحيائها بالعبادة ، شكراً لله تعالى على ما هداهم بهذا الدين الذى ابتدأ الله إفاضته فيهم، فى أثنائها . ولهم أن يعبدوا الله فيها أفراداً وجماعات. فمن رجح عنده خبر فى ليلة أحياها، ومن أراد أن يوافقها على التحقيق ، فعليه أن يشكر الله بالفراغ إليه بالعبادات فى الشهر كله . وهذا هو السر فى عدم تعيينها . وتشير إليه آية البقرة فإنها تجعل الشهر كله ظرفاً لنزول القرآن ، ليذكر المؤمنون نعمة الله عليهم فيه . فهى ليلة عبادة وخشوع ، وتذكر لنعمة الحق والدين . فلا تكون ليلة زهو ولهو تتخذ فيها مساجد الله مضامير للرياء، يتسابق إليها المنافقون . ويحدث أنفسهم بالبعد عنها المخلصون . كما جرى عليه عمل المسلمين فى هذه الأيام . فإن كل ما حفظوه من ليلة القدر هو أن تكون لهم فيها ساعة سمر يتحدثون فيها بما لا ينظر الله إليه . ويسمعون شيئاً من كتاب الله لا ينظرون فيه ولا يعتبرون بمعانيه . بل إن أَصْغَوْا إليه، فإنما يصغون لنغمة تاليه . ثم يسمعون من الأقوال ما لم يصح خبره ، ولم يحمد فى الآخرين ولا الأولين أثره . ولهم خيالات فى ليلة القدر لا تليق بعقول الأطفال ، فضلًا عن الراشدين من الرجال . انتهى.

وقال الطبرىّ : إخفاء ليلة القدر دليل على كذب من زعم أنه يظهر فى تلك الليلة للعيون ، مالا يظهر فى سائر السنة . إذ لو كان ذلك حقًّا، لم يخفَ على كل من قام ليالى السنة، فضلًا عن ليالى رمضان .

الثانى : حكى الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) قولًا عن بعض العلماء ؛ أن ليلة القدر خاصة بسنة واحدة وقعت فى زمان النبىّ ﷺ . ولعل مستنده ماصح أنها رفعت . وقد قدمنا معناه . ولذا ذهب الجمهور إلى خلافه . وعندى أن لا تنافى . لأن المراد بالأول هو ليلة نزول

القرآن وما كان فيها من التجلّى الخاص التى انفردت به ـ وبالثانى أن ما يوافق تلك الليلة من رمضان كل عام ، هى ليلة فيها مزية على غيرها ، بفضل اختصت به دون غيرها . وهذا هو السرّ فى قيام رمضان والتماسها فى العشر الأواخر منه . أعنى إحياء ماماثلها من الليالى ، تبركاً وتيمناً وشكراً لله تعالى على تلك النعمة والهداية . فالقائم فى ليالى العشر الأخير ، أو فى رمضان ، مصادفٌ البتة لما ماثل تلك الليلة . لأنها منه قطعاً . وقد باين الإسلام فى تفضيل بعض الأوقات بتشريع اتخاذها موسماً للعبادة ، ما ابتدعه رؤساء الأديان الأخر فى تذكاراتهم وجعلها أعياداً، تصرف ساعاتها للبطالة والزينة واللهو، مما ينافى حكمة ذكراها . فتأمّل الفرق ، واحمد الله على اتباع الحق .

الثالث : قال الإمام : ما يقوله الكثير من الناس من أن الليله المباركة التى يفرق فيها كل أمر حكيم ، هى ليلة النصف من شعبان، وأن الأمور التى تفرق فيها هى الأرزاق والأعمار، وكذلك ما يقولونه من مثل ذلك فى ليلة القدر ، فهو من الجراءة على الكلام فى الغيب بغير حجة قاطعة . وليس من الجائز لنا أن نعتقد بشىء من ذلك ، ما لم يرد به خبر متواتر عن المعصوم ﷺ . ومثل ذلك لم يرد، لاضطراب الروايات، وضعف أغلبها، وكذب الكثير منها . ومثلها لا يصح الأخذ به فى باب العقائد . ومثل ذلك يقال فى بيت العزة ، ونزول القرآن فيه جملة واحدة فى تلك الليلة . فإنه لا يجوز أن يدخل فى عقائد الدين . لعدم تواتر خبره عن النبىّ ﷺ . ولا يجوز لنا الأخذ بالظن فى عقيدة مثل هذه . وإلا كنا من الذين (إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ) نعوذ بالله . وقد وقع المسلمون فى هذه المصيبة ، مصيبة الخلط بين ما يصح الاعتقاد به من غيب الله ويُعَدّ من عقائد الدين ، وبين ما يظن به للعمل على فضيلة من الفضائل . فاحذر أن تقع فيها مثلهم . انتهى كلامه رحمه الله تعالى .